أسطرة الواقع في رواية (صهيل النهر) للروائية السودانية بثينة خضر مكي

أ. د. سلافة صائب خضير

كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية جامعة بغداد

الملخص:

الأسطورة قصة تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل ، سخرها الأدباء في أعمالهم الأدبية ؛ ليوصلوا فكرة مهمة إلى المتلقي ، وفي الأسطورة أمور كثيرة يفيد منها المبدع لاسيما الروائي ، من ذلك الطقوس وتسخيرها لتكون رموزا توصل للمتلقي ما يفكر به المبدع ؛ لذا آثرت أن أدرس توظيف الأسطورة في الرواية العربية ، وقد اخترت رواية (صهيل النهر) للروائية السودانية بثينة خضر مكي ، وهي روائية قاصة مؤلفة مشهورة في بلدها لمواقفها التي تدافع بها عن المرأة وحقوقها ، فكانت تستعمل الأسطورة والرموز الأسطورية بشكل مدروس ؛ لإقناع المتلقي بأن ما يقرأ أمر حقيقي يستحق أن يقف عنده ويفهمه ، وقد وصلت إلى جملة نتائج منها :

. جعلت الروائية بثينة خضر مكي الواقع أسطورة والأسطورة واقعا .

. بنت الروائية بثينة خضر مكي روايتها على الأسطورة التي كانت معادلا لفكرة الفروق بين المرأة والرجل ، ومهما كان ذكاؤها فهي تابع له.

ـ لجأت الروائية يلجأ إلى الأسطورة محاولة إعطاء تفسير مقنع لما عرضته من غرابة واقعها تجسد في حياتها فتأثرت به ، وأثرت فيه ؛ لامتلاكها عينا تختلف عن عين سواه .

ـ وحدد الروائية مظاهر لاستعمال الأسطورة في الرواية هي : الهروب من قوة المشكلات الحالية وضغطها . وتفجير الدلالات الأدبية ونقلها إلى ذهن المتلقي ، مجاراة ثقافة المتلقي ومعرفته بالأمور، الأسطورة أسلوب من أساليب التشويق .

ـ كانت الأسطورة موضحة لفكرة الرواية وشخوصها ، بل كانت مجموعة من الرموز والطقوس التي وضحت الرسالة التي أرادت الروائية ايصالها .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في محاولتي ايصال فكرة ما من الأدب السوداني الغني بكل إبداع وفكر وعمل جاد إلى المتلقين لعله يلفت أنظار الباحثين إليه فيدرسونه أكثر وأكثر ليستكشفوا ما فيه من كنوز .

Abstract

The myth is a story that is passed on to the generations generation after generation, ridiculed by literary writers in their literary work; to convey an important idea to the recipient, and in legend many things useful to the creator, especially the novelist, from that ritual and harnesses to be symbols that reach the recipient what the creator thinks; The Arabic novel, I chose Sahel al-Nahr's novel of Sudanese novelist Buthaina Khader Makki, a well-known author in her country for her advocacy of women and their rights. She used legend and mythic symbols in a deliberate manner to convince the recipient that what he read was a real thing worth standing at Understand E, has reached a number of results, including Buthaina Khader Makki has made reality a myth and legend : .

The novelist Buthaina Khodr Mekki narrated her story on the myth that was equivalent to the idea of differences between women and men, no matter how much she was a follower.

The novelist resorted to the myth to try to give a convincing explanation for the strangeness of the reality presented in her life affected by it, and affected it; to have an eye different from the eye of others.

The novel identified aspects of the use of myth in the novel are: Escape from the strength and pressure of current problems. And the explosion of literary connotations and transmitted to the mind of the recipient, to match the culture of the recipient and his knowledge of things, myth is a method of thrill.

The myth was the idea of the novel and its characters; it was a collection of symbols and rituals that illustrated the message that the novelist wanted to convey.

Finally, I hope that I have succeeded in trying to deliver an idea of Sudanese literature rich in creativity, thought and serious work to the recipients, perhaps to draw the attention of researchers to study more and more to explore the treasures.

بين يدي البحث :

ليس من الغريب أن يختار الروائي طريقًا وعرًا ليسير به مع قارئه في دروب روايته ، فهو يحقق بذلك الأمر هدفا مهما من خلال جذب انتباه ذلك القارئ إلى عالم الرواية ، أو عالم الروائي الأمر سيان ، فهما وجهان لعملة واحدة ، عالم الروائي هو عينه عالم الرواية ، لكن الأخير عالم مموه تختفي معالمه وراء وجوه وأقنعة متعددة ، يريد الروائي اخفاءها وإدراج حقائقها ضمن وسائل سرية تتعب

ذهن القارئ في كشفها ، وكلما زاد هذا التعب ازدادت معه متعة القراءة ؛ لكونه يشارك المبدع متعة الإيجاد والتأليف ، وهي متعة ما بعدها متعة ، والأسطورة واحدة من هذه الوسائل التي يلجأ المبدع إليها ؛ ليخفي عالمه أو يقدمه بشكل مموه بعيدا عن السطحية والسهولة .

أهمية الأسطورة في الرواية :

تحظى الأسطورة باهتمام كبير من لدن الدارسين سواء أكانوا علماء الانثربولوجيا ، أو الفلاسفة ، أو المؤرخين أو دارسي الآثار ، والمهتمين بعلم الاجتماع أو علم النفس ، وكذلك هي حال النقاد ودارسي تاريخ الأدب والنظرية الأدبية ، و" الأسطورة تحتل موقعا استراتيجيا في حقل فلسفة العلوم التي نمت ، وأينعت ثمارها حول الألسنية وعلم الدلائل ، والنقد الأدبي ، وما سواها من العلوم الانسانية بعد أن هيمنت العقلانية والوضعية حينا من الدهر ، وبعد أن ردّ الاعتبار إلى المخيال والرمز " [1]، وعلى هذا لا بدّ من دراستها في أي نص نحس وجودها فيه ، وقد اخترت رواية الروائية السودانية بثينة خضر مكي* (صهيل النهر) ، التي جعلت الواقع أسطورة ، وجعلت الأسطورة واقعا في رواية تشد قارئها بشكل ملفت ، ويجد قارئ الرواية جذورا أسطورية تاريخية بشكل عقائد أو شعائر ، أو طقوس مكررة تحمل صفة القداسة والارتباط باللاشعور الجمعي المعبر عن حياة الانسان في مراحله الفكرية المختلفة ، بل هي مرتبطة بالواقع وبحياة الإنسان البسيط اليومية الذي لا هم له في حياته سوى العيش الكريم .

يجد الباحث المهتم بدراسة الأسطورة نفسه " أمام نتاجات ذات موضوعات متنوعة مثل الأساطير المتعلقة بخلق الكون وتنظيمه ، وتوزيع السلطات بين الآلهة ، وأساطير تتعلق بأعمال الآلهة ومآثرها وأخرى تروي أحداثا طبيعية كالطوفان والمجاعة والوباء كما أن هناك أساطير عن الموت والعالم الأسفل ، وملاحم تسجل مآثر الأبطال والبحث عن الخلود " [2]، وفي بعض الأحيان قد يوظف المبدع الأمور المذكورة آنفا في عمله الأدبي ، ويجعله جسرا يوصل القارئ إلى فكرة العمل التي يريد المبدع عرضها بشكل مموه ، وتساعده الأسطورة في ذلك ؛ لكونها " تحكي منجزات الآلهة ومآثرهم دون تقييد بالطبع بحواجز الزمان والمكان ، ولا عجب فالأسطورة عالم الآلهة التي خلقت الكون والإنسان وكل مظاهر الحياة الأخرى والتي اضطرت في الدهور الأولى إلى خوض حروب ضارية ... من أجل نصرة قوى الخير على الشر " [3]. ولعل ما تمثله الأسطورة من كونها حالة تساعد الإنسان في فك الألغاز المحيطة به في حياته جعلتها محور اهتمامه ، فهو " مخلوق ذو نزعة أسطورية ، أي ذو نزعة إلى خلق الأساطير وابتكارها ... كان منذ القدم وما يزال يجد نفسه أمام أسرار مبهمة لا يفهم كنهها ، فراح يلح في السؤال عنها ، ويجهد نفسه في إيجاد الجواب عليها ، ترى ما سر هذا الكون الذي يعيش فيه ، وما سر كل هذه

الظواهر الطبيعية التي تحيط به من كل جانب ، وما سر وجوده على الأرض ، وما سر قوته وفنائه في نهاية المطاف " [4] ، ويبدو لي أن الروائيين الذين يجعلون الأسطورة محورا لأعمالهم الأدبية التي تدور أفكارهم حولها ، إنما يريدون القول : إن الإنسان في عصرنا الحاضر إنما يعيش حالة الفكر الأسطوري " الذي ينحى في تفسير الأشياء منحى أسطوريا ، فسقوط المطر مثلا نفسره على أنه ناتج من تغيّرات مناخية معينة ، وإن المطر ينزل دائما في نفس تلك الظروف المعطاة ، لكن الإنسان القديم الذي يهمه دائما مَنْ يحدث الشيء يغزو هطول المطر إلى الطائر العملاق (أنزو) الذي يأتي في اللحظة المناسبة ليلهم الثور السماوي رمز الجدب والجفاف " [5]، فحالة الفكر الأسطوري تبعد الإنسان في عصرنا هذا عن الحقائق العلمية المجردة التي لا بدّ له وهو يعيش في هذا العصر أن يؤمن بها ، وأن يتخذها طريقا له للوصول إلى الحقيقة التي ينشدها في حياته ، ويعود الإنسان القديم إلى الكهنة المختصين بهذه الأمور لحل تلك المشكلات الفكرية العالقة واستلهام الوحي الإلهي منهم عن طريق الرؤى والفأل والقرابين التي يفصح من خلالها عن السبب الحقيقي لغضبه [6] ، وحرمان البشر من الخيرات التي يفترض به أن يغدقها عليهم ، وهي محاولة من البشر لاستثارة القوى الكامنة من خلال الطقوس والشعائر والاحتفالات ؛ ليحاكي ما قامت به الآلهة قديما وبذلك سيصل إلى النتائج التي حصلت وحققتها الآلهة ، وانتهت بها الأسطورة التي هم بصددها [7]. وهذا الأمر يخلصه من ضغط الظروف الخاصة التي يعيشها مغرما ومقهورا ، وهذا الأمر قامت به الروائية عندما حاولت حل مشكلات البطلة باللجوء الى الأسطورة.

والأساطير تجسيد لقوى الطبيعة قد يكون أبطالها من البشر الذين ألّهوا بسبب المنجزات التي حققوها ، وهي رموز عن الكنايات ، والشعائر الدينية ، وتحيل تلك الأعمال إلى مصدرها الأسطوري بشكل يتوافق ومدى اطلاع القارئ على تلك المرجعيات ؛ مما يضاعف متعته ، أما إذا لم يمتلك معرفة بالأسطورة ، فيكفيه أنه اطلع عليها من خلال تلك الأعمال الأدبية ، مما يزوده بطاقة خيالية كبيرة تمنحه متعة عيش أحداث الأسطورة في العمل الأدبي بشكل متوازن يتقارب فيه المحسوس الآني بغير المحسوس الموغل في القدم ، هذه الأمور كلها تولد حالات من استعادة الماضي واستجلابه الى الحاضر ، ثم تخليق الحلم واستجلابه الى الحقيقة ، وأخيرا تحقيق الخيال واستجلابه الى الواقع وهذا ما حرصت الروائية على تحقيقه . واستعمال الأسطورة في الرواية يحقق لها حالة من الشعرية والغموض ، ومن هنا" يُعد استغلال الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجرأ المواقف الثورية فيه وأبعدها تأثيرا ، ففي ذلك استعادة للرموز القديمة ، واستخدام لها في التعبير عن أوضاع الإنسان العربي المعاصر ،

وارتفاع بها الى أعلى مقام وتحويل للتاريخ الى لون من الأسطورة ، فهي تصل بين الإنسان والطبيعة ، وبين حركة الفصول وتناوب الخصب والجدب ، وبذلك تكفل نوعا من الشعور بالاستمرار ، وتعين على تصور واضح لحركة التطور في الحياة الانسانية " (8).

والشاعر أو الروائي يفيد من الأسطورة والرموز ليبث تجربته الحياتية الخاصة الى المتلقي ، وليس مادة يستلهما ؛ لكونها موجودة في عالمه ، ويقدمها الى المتلقي منصهرة بتجربته الشعرية التي يقدمها للمتلقي ؛ وتبقى " الأساطير قديمها وحديثها من كنوز الإنسانية التي لا تقدر بثمن ، فمضمونها شهادة على ما في البشر ، وإدراكهم للعالم وتصورهم إياه ، إنها صورة لنا عنه وعنا ، وندرك من خلالها الثابت والمتحول في المخيال الجماعي . أما من حيث الصيغة في شكل من أشكال التعبير نسيج وحده ، ترجمه المولّد له الفكر ، والخيال والوجدان ، وأداته الرمز ، ومسكنه الذي تأوي إليه ، أو تتقنع فيه مستويات عديدة من المغلوط " (9) .

والروائي يلجأ إلى الأسطورة محاولا إعطاء تفسير مقنع لما يحاول عرضه من غرابة الواقع الذي يراه مجسدا ومتحركا أمامه ، مؤثرا ومتأثرا فيه والروائي ليس شخصا اعتياديا بل هو ناظر إلى الأمور بعين تختلف عن عين سواه و" الأسطورة بالنسبة لصنّاعها ومعتنقيها محاكاة فعل ، وإنما هي فعل ممتد في المستقبل ، فإن إنسان ما قبل الكتابة يدرك المستقبل على أنه حالة من الترقب الدائم لما لم يقع بعد ، أو الانتظار لما يأتي ، وهذه الرؤية للمستقبل قريبة من رؤية الإنسان المعاصر له ، وإن اختلف إدراك كل منهما لصورة الزمن ، فالإنسان المعاصر يفهم الصورة الكاملة للمسافات الزمنية ، بينما عقل إنسان ما قبل عصر الكتابة لا يتصور الزمن على نحو ما نتصوره ، إنه يرى فيه الشيء الذي يمتد أمام خياله في خط مستقيم متشابه ، وتقع عليه الحوادث التي لا يمكن التنبؤ بها الا بترتيبها مقدما في سلسلة مستقيمة الاتجاه غير قابلة للقلب ، وفي هذه السلسلة تصطف تلك الحوادث بالضرورة بعضها إثر بعض ، فليس الزمان من ضروب التتابع على ما هو عندنا ، فهو أبعد الناس عن اعتبار الزمن كمًا متجانسا فهو يحس ، كيفيا أكثر مما يتصوره ... وتمثل الأسطورة أول بناء ربط به إنسان ما قبل الكتابة الماضي بالمستقبل ، الماضي باعتبار ما كان وهو ما ينجذب إليه في محاولة تلافي أخطار أو أخطاء حدثت له ، ,على هذا تصبح الأسطورة ممثلة لتجربة الإنسان الماضية في حياته بجميع صورها ومحاولته بناء فعل جديد يقيم به مستقبله "(10).

ولفهم طبيعة الأسطورة ، وإدراك حقيقة فهمها لا بدّ من الوقوف على حقيقتها وتعريفها فهي " مجموعة خرافات وأقاصيص ، وهي اشتقاق من سطر الأحاديث وموضوعها ــ إضافة للآلهة ــ يتناول

الأبطال الغابرين وفق لغة وتصورات وتخيلات وتأملات وأحكام تناسب العصر والمكان الذي صيغت فيه ، وشكل الأنظمة والمستوى المعرفي ، وهي في الوقت ذاته تشكل ثقافة عصرها ، بحيث تبدو ذات خصوصية تربطها ببيئتها ومجتمعها ، بحيث يمكن من دراستها استقراء التاريخ الأصدق لزمنها ومكانها " [11]. والسر المهم الذي يدفع الروائي الى الاستعانة بالأسطورة ؛ أن الأساطير فيها كثير من " مشاعر إنسانية جياشة ، وأحاسيس وتصورات ومواقف تطلعنا على فلسفة الإنسان في الوجود ، وعلى محاولاته الفكرية الأولى ، والتي تتضمن خلاصة تجاربه وماضيه ، وكيف كان يستنتج من هذه التجارب منطقه ومفاهيمه وتعامله مع واعقه ، وفق منطق خاص ، ووفق مضامين أخلاقية ، تمت صياغتها في قوالب أدبية ذات خصوصية ، توارثتها الأجيال ، وعدلت فيها وأضافت إليها ، مما جعل الأسطورة محل عمل دائب لا تتوقف ، فهي حضرية حية " [12]. وحدد دارسو الأسطورة لها مبادئ تحدد مفاهيمها العامة واستعمالها بشكل عام هي إن الأسطورة تصف حقائق تاريخية ، وهي في الوقت نفسه رموز لحقائق فلسفية دائمة ، وهي إظهار لعملية طبيعية مرة بعد أخرى بصيرورة لا تتوقف [13].

وهناك فرق بين الأسطورة والأسطورة الأدبية فالأولى تتبناها جماعة ولا يعرف مؤلفها بينما تكون الأسطورة الأدبية فردية الإنتاج ، وهو ما يفقدها قداستها الجماعية التي تلتف حول الأسطورة وتتبناها ، ومن جهة أخرى يختلف النص الأدبي الذي يتضمن الأسطورة الأدبية من مؤلف إلى آخر والأسطورة تفقد طابعها القداسي ومضمونها عندما تتحول إلى أسطورة أدبية خاضعة لرؤى جمالية وفكرية يمنحها النص [14]. واستعملت الأسطورة في الرواية مفاتيح للقوى الروحية التي تحيط بالإنسان ، وتستطيع أن تنقل القارئ إلى حالة من الوعي التي تنقله الى الروحانية [15] ، التي تنتشله من الواقع المرير إلى الخيال الذي يرفعه الى التخلص من كل ما هو مؤلم في حياته . والأمر الذي يهمنا هو أن " الأسطورة يجب أن تبقى حية ، ولا يستطيع أحد أن يحافظ عليها حية سوى الفنانين بهذا الشكل أو بذاك ، ووظيفة الفنان هي أسطرة البيئة والعالم " [16]. وفي الوقت نفسه تمثل الأسطورة تجربة روحية خاصة تتحقق من خلال الإيمان المطلق بها ؛ و"وحدة التجربة الروحية للإنسان عبر الزمان واختلاف المكان ، وإن كل دين ونظام ميثولوجي ليس إلا قطعة ملونة صغيرة في فسيفساء بديعة زاخرة بالأجزاء التي تبدو مستقلة عن قرب ، متوحدة عن بعد ، في نظام متكامل يعطي معنى لكل جزء من أجزائه ، ويستمد معناه من هذه الأجزاء ذاتها " [17]. و" الأسطورة الواحدة ليست نتاج إبداع فني جمالي لشخص بعينه ، بل هي محصلة خبرة بشرية طويلة ، وتاريخ طويل يمتد الى أغوار الماضي السحيق ... كل هذا يجعلها ... مثقلة بالرموز الصعبة ، حافلة بكل عصي غريب ، من هنا ففهم أي

أسطورة يتطلب إعادة بنائها ، والكشف عن تاريخها ، وأشكالها السابقة المتضمنة في شكلها الأخير وصولا الى حلتها الأولى وباعثها الأساسي " [18]. وبناء على ما سبق تغدو الأسطورة وسيلة مهمة من وسائل الإبداع الأدبي تساعد المبدع على اختيار المكان والزمان المناسبين لبناء فضاء روائي يجذب المتلقي إليه.

الأسطورة في رواية صهيل النهر:

ولعل السؤال الذي نريد الإجابة عليه ونحن بصدد دراسة تكوين نسيج الرواية التي تجعل الأسطورة محورا لها هو: لماذا يلجأ الروائي إلى الأسطورة إذا ما أراد الخوض في عرض واقع مرير لا يمكن أن يتملص منه أبطال الرواية ؟ وفي حال أكثر تحديدا لماذا لجأت بثينة خضر مكي للأسطورة في روايتها ، والأمر الذي بنت عليه بثينة خضر مكي روايتها كان حقيقة أن الأسطورة تستمر " دائما حية في الخيال الشعبي بعد زوال تأثيرها الديني والروحي من خلال الحكايا الفلولكورية وحكايات الأطفال " [19]. والأمر الآخر هو أن " الأسطورة عندما تتدهور وتفقد سيطرتها وتأثيرها ، تتشظى إلى خرافات مبعثرة في الفلكلور والحكايات الشعبية ، إلا أن رموزها مع ذلك تبقى حية متوهجة رغم الرماد المتراكم فوقها " [20] . والأمر الثالث هو ربط " الفكر الأسطوري دوما ، حركة الحياة والمادة بحركة الآلهة التي تشكل أرضية ما ورائية لكل مل يجري على مسرح الكون " [21] .

وبهذا أفادت الروائية من الطاقة الكبيرة التي تختزنها الأسطورة لكونها " قصة أو مجموعة عناصر قصصية تعبر وترمز إلى مظاهر عميقة غافية في الوجود البشري وما وراءه ... وغالبا ما تتعلق في نشأتها على الأقل بالطقوس الفصلية " [22] . بل أفادت من أمر آخر مهم هو أن " الأسطورة تشتغل على أعلى مستويات الرغبة البشرية لا يعني بالضرورة أنها تقدم عالمها وكأنه عالم يمتلكه الإنسان أو بإمكانه أن يحصل عليه ، ففي حدود المعنى ... الأسطورة هي العالم ذاته منظورا إليه على أنه حقل ، أو منطقة للفعالية ، واضعين في الذهن مبدأنا بأن معنى الشعر أو نمطه بنية خالبة بتضمينات فكرية ، ويكون عالم المخيلة الأسطورية في العادة ممثلا بتصور للسماء أو الفردوس في الدين ، وهو عالم الكشف والآخرة " [23]. وللأسطورة " مظهران موازيان فبصفتها قصة هي شعرية ويعاد خلقها في الأدب ، وبصفتها قصة ذات وظيفة اجتماعية محددة هي برنامج لمجتمع معين ، ولا ترتبط بالفعلي في كلا المظهرين بل بالممكن " [24]. فقد أعادت بثينة خضر مكي إنتاج الأسطورة في روايتها وهي تؤكد فعل إعادة الإنتاج في قولها على لسان بطلتها التي فقدت كرامتها ، بل فقد عالمها كله عندما تزوج عليها زوجها امرأة أخرى : " لن أستطيع تجاوز ذلك الحدث الذي هدم سعادتي وهز يقين ثقتي في نفسي ، هل نترك الأمر لتصاريف الأقدار كما اتفقنا ؟ وهل صحيح أن الذاكرة القوية المتخمة بالذكريات

المشحونة بالحزن تهت تعرجات خطوطها وتنمي مراكز قوتها بمرور الزمان ؟ أسائل موج النيل .. هل يمكنني أن اتخذ قرارا حاسما بترك عاصم ؟ أحبه بقوة لا شك وهو يملك عاطفة جامحة حيالي لكنني لن أستطيع أبدا أن أنسى أنه تزوج أخرى .. رغم كل المبررات الشرعية والاجتماعية " [25]. ثم تقول على لسان بطلتها : " آه .. من يأتيني بود النمير ليشق عني جلد العجوز ويحررني كما حرر فاطنة السمحة قصب السكر ؟

تعال يا ود النمير.. فإنني افتقدك بشدة وأحتاج إليك ، ضاعت معالم إنسانيتي يوم أضعت ذاتي وسجنتها داخل حدود (مطمورة) القيود الاجتماعية المحفورة بمعاول وأد الموتى ، وحملت نفسي فوق طاقتها أعالج صعوبة تقاليد يتعذر فهمها بارتباط وعيي وقناعاتي لكنني أطابق معناها قسرا على حياتي تفسيرا لمقاييس تافهة وضعها آخرون تختلف ظروف حياتهم وأمزجتهم عن ظروف حياتي وطريقة تفكيري .

أين أنت يا فاطنة السمحة .. تعالي يا خدن روحي .. أحسك قربي .. أدثرك بصوت خالتي مدينة وألتحف معك ذات الرداء في ذات الوقت أراك بعين الشوق ..تستطعمين خبزي تشاركيني فراشي ، وتلقميني ابتساما حين يجرحني الشوق ، وتكفكفين دموع مهانتي التي أمتصها في صمت وأنا أعاني من غربتي وسط الآخرين " [26].

عالم البطلة المنهار بفعل عمل مقبول شرعيا وقانونيا كان أمرا مدمرا لفكر حالم تعيشه البطلة ، وعندما أعادت الروائية إنتاج الأسطورة كانت في الوقت نفسه ترتكز على كون الأسطورة تمثل " الذاكرة الجماعية للبشرية في الأعمال الأدبية والآثار الفنية التي يزخر بها تاريخ الأدب الإنساني " [27]. لأن ما يحصل في واقع البطلة كان شيئا أقرب إلى الخيال إذ أن الحل لا يكون إلا من خلال النظر إلى فكرة الأسطورة التي حلت مشكلة كبيرة أكبر من قدرة البطلة على حلها في حياتها ، فهي امرأة مسكينة لا حول لها ولا قوة ترجو أن يساعدها أحد من مجتمعها لتتخلص من الأزمة التي تعانيها في حياتها ، لكن ما يحصل أنها في بدء الرواية فقدت فقدت أنوثتها ودمر جسدها بالختان ، ثم فقدت زوجها ، ثم فقدت وطنها بالهرب والهجرة ثم فقدت عملها بسبب جمالها الذي يثير مطامع الناس ، وبهذا صارت بلا حول ولا قوة فلا بدّ من قوة أكبر منها لتحل لها مشكلاتها ، فكانت الأسطورة ذلك الحل .

مظاهر الأسطورة وطبيعتها :

و" الأسطورة تروي تاريخا مقدسا ، وتسرد حدثا واقعا في عصور ممعنة في القدم ، عصور خرافية تستوعب بداية الخليقة أو بعبارة أخرى تحكي الأسطورة بوساطة أعمال كائنات خارقة كيف برزت الى الوجود حقيقة واقعة ، قد تكون كل الحقيقة أو كل الواقع مثل الكون أو العالم .. وقد تكون جانبا من الحقيقة مثل جزيرة من الجزر ، أو فصيلة من النبات ، أو ضرب من السلوك الإنساني ، أو منظمة اجتماعية والأسطورة بهذا المعنى قصة (وجود ما) ، فهي تروي كيف نشأ هذا الشيء ، أو ذاك وهي ترتبط بالواقع في أولياته وأبطالها كائنات خارقة ويعرفون بما حققوا في عصور التكوين " [28] ، وتمثل الأسطورة المرحلة الأولية لطفولة الجنس البشري في تعامله مع قوى الطبيعة ، وهي تعبير عن خيالاته وأحلامه الأولى وتجسيد لمشاعره [29]. والمظاهر هي :

. المظهر الأول : الهروب من قوة المشكلات الحالية وضغطها:

وهناك من وجد أن لجوء الأديب الحديث ، أو المعاصر إلى التراث الأسطوري القديم كون الأسطورة تمثل للأديب في أي عصر الأنموذج الأول الذي يمتلئ بكل أسباب السحر ، ويزخر بجلال المشاعر الإنسانية في طفولتها البريئة ، وهي بعد ذلك خالدة وباقية ؛ لأن الأساطير تتناول أعظم القضايا والمشاكل التي لا تتبدل ولا تتحول ؛ لأن الرجال والنساء لا يملكون لأنفسهم تبديلا ولا تحويلا ، فهي تتناول قضايا الحب والحرب والإثم والطغيان والشجاعة والمصير ، وهذه جميعها تدور حول محور علاقة الإنسان بالقوى الغيبية التي تكون بنظره غير منطقية مرة ، وقاسية مرة أخرى ، وقد تكون عادلة مرة ثالثة [30] . غير أني اختلف مع هذا الرأي فأجد أن الروائية كانت ترى أن العالم الذي ولدت فيه الأسطورة التي ذكرتها في الرواية أسطورة فاطنة السمحة كانت أكثر نضوجا وفهما للواقع الذي ولدها ، ففاطمة تلك الفتاة الجميلة التي وقعت ضحية عهد أخذه أخوها على نفسه عندما ألجمت سبيبة من شعرها حصانه ، فصمم على البحث عليه صاحبتها ثم الزواج منها ، وهو القادر على أن يبر بقسمه فهو فارس القبيلة المغوار وسيدها المطاع الوسيم الشجاع الغني ، ولما تطابقت السبيبة مع شعرها قرر أن يتزوجها ليحافظ على كرامته ويبر بقسمه ، وترفض فاطنة السمحة هذا القرار كونه عارا عليها وعلى القبيلة ؛ لأن زواجها من أخيها سوف يكون عادة قبيحة وكل شباب القبيلة سيتزوجون من أخواتهم توفيرا للمهر وسترا لأعراضهم وقالت أن الحل الوحيد السليم يكون في الفرار من الديار ومن العار" [31] ؛ لذا هربت من بيت والدها . فهي تقدر عواقب الأمور وتتحلى بالذكاء والدهاء لتحل ما يحل بها من مصائب ، والأسطورة إذا دخلت الأدب كان دخولها لوظيفة تحدد أمر مهم يتمثل في أنه " يكشف بصورة أو بأخرى عن معتقداته في طبيعة الإنسان ومصيره ، وطبيعة العالم الذي

يعيش فيه ، إنه يحاول أن يخلص الأسطورة القديمة من مسوحها وأصولها الدينية ، ويسقطها على ما يريد تصويره من مشاعر أو شخصيات أو أحداث دون الوقوع في حمأة المحاكاة " [32].

. المظهر الثاني : تفجير الدلالات الأدبية ونقلها إلى ذهن المتلقي :

والأسطورة إذا ما استعملت" في سياق أدبي فجرت الدلالات والرموز والمعاني التي تكمن ، بل أصبح مجرد استدعاء اسم شخصية معينة في تراث أمة من الأمم مثالا على تلك المعاني والإشعارات الأولى التي أحاطت بها ، كما يوحي اسم (هرقل) بالقوة ، و(عنترة) بالشجاع ، و(قيس بن الملوح) بالحب اليائس ، وهكذا " [33] ، فقد ارتبط اسم فاطنة السمحة بالدهاء والذكاء فهي ذكية جدا ، وتستطيع أن تحل مشكلاتها الصعبة التي تعرض مسار حياتها من ذلك قول الروائية : " وفي مساء ذلك اليوم هربت فاطنة السمحة بعد ان ودعت صويحباتها بالدمع الثخين ، وقد شقّ عليهن فراقها ، واوصتهن بأن يتسترن على أمر هروبها ، ويكتمن خبر فرارها سبعة أيام حتى تستطيع أن تبتعد عن ولا يتمكن محمد من اقتفاء أثرها وعاهدنها بأن يذكرن أن فاطنة تقضي عند كل واحدة منهن ليلة حتى لا يشك في أمر اختفائها " [34] . ومن ذلك أيضا قوله الروائية تبين تغير فاطنة السمحة لشكلها ومحاولة تنكرها لتختفي من العيون التي تطمع فيها : " لكن نفس فاطنة عافت المقام في ذات المكان الذي دفنت فيه جثة العجوز الطيب ، لبست الجلد ، وحملت بيمناها عصا لها شعبتان من شجر السنط ، وسلكت طريق القوافل في مسيرة يومين دون أن تخشى عيون الرقباء ، وقد اطمأنت إلى تمام تنكرها ومشت حيثيا حتى وجدت نفسها في منطقة صحراوية استطالت فيها جبال ناتئة الصخور " [35].

المظهر الثالث : مجاراة ثقافة المتلقي ومعرفته بالأمور:

ولا بدّ من القول إن استعمال الفنان الأسطورة ليس " استعراضا لثقافته أو استعلاء منه على المتلقي بل هو على الأصح إسهام منه في تيار الثقافة العربية ، وتزويد للمتلقي بأسباب التواصل ، وإضفاء للشاعرية والعذوبة على روح السياق الأدبي ، بحيث يصبح العمل الأدبي مصدرا للمعرفة ، إلى جانب كونه تجربة إنسانية تعانق في تحليقها مشارف الماضي والحاضر وتمس في تماهيها روح الإنسان " [36] . وهذا ما أجده في رواية صهيل النهر فالروائية تفيدنا عند قراءة الرواية بشكل واضح إذ نجد عتبات نصية تبدأ بها روايتها بشكل مقصود ؛ لتدفع القارئ إلى البحث عن سبب اختيار هذه العبارة وليس غيرها ، نجد عبارة قالها ابن الهيثم وقد نقلتها الروائية في بداية حديثها عن فاطنة السمحة هي :

(الظلمة جلباب الليل)[37] . والليل الذي عنته الروائية هو ليل فاطنة السمحة التي كانت تتخذه ستارا لتحمي نفسها من أعداء جمالها الأخاذ الذي كان سببا في مشاكلها في الحياة .

ولو أنعمنا النظر في رواية صهيل النهر وقرأناها بشكل أكثر قربا إلى الروائية منه إلى النص الأدبي سنجد أن الروائية كانت تركض ساعية وراء هدف معين يتمثل في تحقيق مقاربة فنية بين الإنسان كونه كائنا مضطربا على وجه الأرض يعيش فيها بالرغم من أنفه ظروفا هيأت له مسبقا ، وبين القوى الطبيعة التي تتحكم به من جهت أخرى ، وبطبيعة الحال هو لا يقدر على الانفلات منهما باي حال من الأحوال ولجأت الروائية إلى الأسطورة لكونها تمثل " محاولة الجمع بين القوى الإنسانية والقوى الطبيعية في صورة الطقوس ، وعلى هذا تبدو الوظيفة الاجتماعية للفنون متصلة اتصالا وثيقا بتصور غاية النشاط في الحياة الإنسانية ، ومن ثم ، فإن أسطورة الفن المحورية في الفن المحورية في ضوء التميز والأهمية . ينبغي أن تكون رؤية لغاية النشاط الاجتماعي للعالم البكر الممتلئ بالشهوات " [38] .

ونجد ذلك في قصة عارضة ساقتها الروائية في يوم اعتيادي من أيام البطلة عندما قابلت صديقتها القديمة سناء بنت حاجة أمونة التي فقدت عملها في أحد مطاعم فرنسا تقوم فيها بغسل " الصحون والأكواب للزبائن عن طيب خاطر ، وهي التي لم تكن والدتها تسمح لها بغسل الكوب الذي تشرب منه ، وهي الفتاة الجامعية الجميلة التي تشغل منصبا مرموقا في أشهر الصحف ، وترشق صورتها الأنيقة في رأس العمود اليومي الذي تقوم بتحريره .. تأففت في البداية لكنها ألفت العمل ؛ لأنه يدر عليها عائدا مجزيا ... لكن صاحبة المطعم حولتها لتلبية طلبات الزبائن ، وقد لاحظت قوامها السمهري الجميل الذي . في رأيها . سيكون عنصرا جاذبا لرواد المطعم والبار ، ظنتها واحدة من فتيات أمريكا اللاتينية ، فهي لا تعلم أبدا أنه يوجد على البسيطة بلاد اسمها السودان ، وأن الفتاة الجميلة قد جاءت مهاجرة من هناك " [39] .

فقد حاولت الروائية سرد حال تلك الفتاة التي مثلت برأيها بنات جيلها إلى أيقونة تمثل العناء الذي تعانيه الفتيات بين الجمال الذي يمثل الطبيعة والواقع الذي يحاول أن ينهش هذا الجمال ، فكانت الأسطورة التي اختارها الروائية أسطورة فاطنة السمحة التي وقفت ضد الظلم الذي أراد أن يمارسها ضدها أخوها ، قالت : " وأنا أتفكر في أحوال بنات السودان .. أخوات فاطنة السمحة .. ودوافع الهجرة التي انطلقت مثل سعير محموم اجتاح عقول الشبان ثم الشابات ... وكنت في ذات الوقت أندب نفسي وحظي العاثر الذي أوقعني في براثن الهجرة " [40] . والروائية تلجأ إلى التعبير عن الويلات التي تعانيها

بلاد بلدها السودان وتجعل لهم مثالا يحتذونوه هي فاطنة ، بل جعلتها إيقونة للشخصية التي يجب أن تكون عليها كل امرأة سودانية .

. المظهر الرابع : الأسطورة أسلوب من أساليب التشويق :

ومما يستوقف القارئ في لجوء الروائية إلى الأسطورة هو أنها هي نفسها قصة تجذب قارئها إلى عالمها لكنه " عالم تستمر فيه الشمس في الشروق والغروب قبل أن يفسر العلم شروقها وغروبها بأنه ضرب من الأوهام ، كذلك الأسطورة حين تحاول عامدة وبصورة مقننة أن ترى الطبيعة في هيأة إنسانية " [41] . وتوظف الأسطورة " بوصفها رموزا للعلم أو للدين أو للأخلاق ، إنها تنشأ في المقام الأول معبرة عن طقوس أو قوانين أو تكون شواهد أو رموزا تجلو موقفا أو وجهة نظر معينة ... فإذا توطدت الأساطير واستقرت بنفسها ، فإنها قد تفسر عقائديا أو مجازيا بطرق لا تعد ولا تحصى " [42] . فوجودها في النص الأدبي يولد تشويقا في ذهن القارئ ، يبحث فيها السبب الذي دعا المبدع ليدخلها في روايته ، ثم المغزى من وجودها في العمل الأدبي .

مثال ذلك قول الروائية واصفة حال فاطنة السمحة عندما التقت برجل عجوز وما جرى معه كان تعبيرا عن حيلة فاطنة السمحة ودهائها :" ترددت قليلا وهي تتخلل شعره وتمشطه ثم قالت : وجلد العجوز ، كيف يتم سلخه يا جدي ؟ جفل وأفلت يدها من شعره ثم ضحك وقال : مالك يا بنيتي ؟! دايرة تسلخيني يا السمحة ؟!

ـ لا يا جدي .. أنت عجوز طيب .. لكن ربما ألتقي بعجوز شرير..ضحك العجوز ببراءة طفل الخامسة وقال : عند غرز شوكة خضراء من شجرة سنط في منتصف رأس رجل عجوز وقراءة الفاتحة والآيات الخمسة المعلومة ينسلخ جلد العجوز بإذن خالقه " [43].

والروائية أفادت من طاقة الأسطورة وما تحققه من خيال واسع يعيش المتلقي فيه ففي الأسطورة " تحدث الحوادث المثيرة التي هي مستحيلة في عالم تحكمه قوانين الزمان والمكان ، فالبطل يترك بيته وبلده ؛ لينقذ العالم ، أو يهرب من رسالته ليعيش في بطن سمكة كبيرة ويموت ويولد من جديد والطائر الأسطوري يحترق ثم ينبثق من الرماد أجمل من ذي قبل " [44] .

قالت الروائية : " وعادت إلى جثة العجوز وجلست تبكي عليه وتطلب منه السماح والمغفرة . وهي تحكي له عن حكايتها مع أخيها محمد الذي أراد الزواج بها ، ثم أنها ترحمت على العجوز وأهالت عليه

التراب ، بعد أن غطته بأغصان شجر السدر. وعندما جف الجلد لبسته واطمأنت إلى أن شكلها الجديد ، وقد تنكرت في هيئة رجل عجوز يحميها من طمع الطامعين في جمالها ، ثم أنها اقتطعت غصنا كبيرا من شجرة خضراء كثيرة الأشواك وغطت به مدخل المغارة ، تغلقها عليها بعد أن دخلت فيها ... ونامت نوما متقطعا تطاردها فيه خيالات وأشباح رجالية ، من بينها شبح الرجل العجوز ، وشبح أخيها محمد الذي يلاحقها ليتزوجها وكان سبب هروبها من وسط قبيلتها وقريتها هو إصراره على الزواج منها " [45] . ومن هنا يبقى القارئ باحثا عن معنى الأسطورة ومغزاها ، وما دورها في حل مشكلة البطلة غير أن الروائية حلت بالأسطورة مشكلة جيل كامل من النساء الذين كانوا أخدان فاطنة السمحة ، والعودة إلى الجثة كان معادلا للنظر إلى الوراء ونبش الماضي ، والبحث فيه عما يؤلم لهذا تركت البطلة الجثة (الماضي) وغطتها بأوراق الشجر أي الطبيعة التي تحمي الإنسان من نفسه ومن الشر الكامن فيها.

تناقض الواقع مع العقل في عالم رواية (صهيل النهر) :

والغريب بالموضوع أن الأساطير والخرافة ، والخيال تناقض العقلانية التي كانت قد سيطرت على الفكر الإنساني منذ عصر أرسطو [46] ، بعد أن استعمله أستاذه أفلاطون ليشرح أفكاره من خلال نظرية المثل [47]. غير أن لجوء الروائية لها جعلنا نفهم عمق المأساة التي تشعر بها فيما تنظر إليه حولها من المناظر المؤلمة التي لا تستطيع أن تفعل شيئا إزاءها ، فما كانت من بطلتها ، وبنات جيلها إلا السفر ، والهجرة إلى المنافي للبحث عن الفردوس المفقود الذي يريدون ، وإذا بها لا يجدون إلا أماكن للسلب ، والفقد أكثر من الوطن الذي هربوا منه قالت : " سهرت طويلا ... وانا أفكر في أحوال بنات السودان .. أخوات فاطنة السمحة .. ودوافع الهجرة التي انطلقت مثل سعير محموم اجتاح عقول الشبان ثم الشابات ، تذكرت زمانا ، روت لنا عن حكاياته "خالتي مدينة" ، كانت المرأة فيه ترفض مغادرة المكان الذي شهد ميلادها حتى ، ولو برفقة زوجها .. وكنت في ذلك الوقت أندب نفسي وحظي العاثر الذي أوقعني في براثن الهجرة ، ولعنت ذلك اليوم البعيد الذي قدمت فيه جواز سفري ودفعت كل ما أملك من حلى ذهبية ومبلغا من المال ، اقتصدته من رصيدي المتواضع في البنك ، ثمنا لتأشيرة دخول إلى بلاد ظننتها الجنة ، بعد مشاهدتي لصور جمال طبيعتها ، وقد قرأت الكثير عن عمرانها وحضارتها فإذا بها تتمخض عن جحيم مبين !! تركت بلدي وأهلي واستقراري وسكني وهاجرت لأواصل التنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن بلد إلى آخر لا أدري من أي رفض قسري يكون هروبي .. هل هو حقا الشعور بالوحدة الذي يطاردني .. لماذا رفضت توسلات سندس ابنتي وعادل أخي باللجوء الى كندا ؟! .. هل هو

الهروب من حبي وضعفي أمام سطوة عاطفتي تجاه زوجي وخوفي من الرجوع إليه زوجة ثانية ليس معها طفل يحميها من سطوة الرجل الذي ربما ينحاز إلى جانب الأخرى حين تسيطر عليه غريزة الأبوة ؟ هل هي كرامتي المهدرة التي لم اجد لها علاجا في كل اعتذارات عاصم ومحبته ؟! " [48] . وفي هذا النص نجد أن الروائية تلخص كل المشكلات التي تصاحب بنات جيلها اللاتي فضلن الهجرة على البقاء ، فقد حددت أولا دوافع نفسية تتمثل في الوحدة وتغير العادات الاجتماعية التي كانت تسيطر على المجتمع السوداني في مراحل ، وحقب متنوعة فقد الإنسان كل مقومات الحياة فيه ، ثم عادة جاهلية قديمة تتمثل في تفضيل الذكور على الإناث الذي جعل البطلة تترك زوجها لأنه تزوج عليها أخرى ظن أنها ستنجب له ذكرا ، وأخيرة حاجة إنسانية تمثل ضعف المرأة أمام الرجل حتى لو تركها وذهب لأخرى باحثا عما ينقصه عند تلك المرأة ، فالمرأة تتخلى عن كرامتها لتعيش معه رغم أنفها راضية بما يمليه عليها قدرها . وتبقى الأسطورة في (صهيل النهر) معادلا فكريا لفكرة الرواية الأساس ، ويبقى اختفاؤها فكرتها الأساس فهي فكرة حاولت الروائية من خلالها أن تبرهن على أن المرأة بكل ما أوتيت من جمالها وفطنة وذكاء ودهاء لا توازي في نظر المجتمع رجلا عجوزا ذهبت أحلى سنون عمره ، لذا فإن اختفاءها في إهابه وتنكرها بشخصيته جعلها تعبر عن نفسها خير تعبير بلا خوف من كونها امرأة قال : " وفي ذات ليلة أرقت فيها كثيرا ، ونمت بعد مشقة ، رأيت فيما يرى النائم " فاطنة قصب السكر " ترتدي جلد العجوز وتحملها راحلة ود النميري إلى قصره .. قال لها ود النمير بعد راحة ثلاثة أيام أحسن فيها ضيافتها وإكرامها ...يا عمي لازم نشوف لك عمل .. والرعي يناسبك ويذكرك بالصحراء التي أبيت مفارقتها .. ما رأيك في رعي الإبل ؟ ... " [49] .

وتذكرنا طريقة كلام الروائية بطريقة قص شهرزاد في ألف ليلة وليلة عندما تعلل سبب لجوئها إلى القصة هو تزجية الوقت بسبب الأرق وقلة النوم ، لكن الفرق أن الحال هنا مع رجل مما أوجب الإكرام وحسن الضيافة ، فقد حاولت أن تجعل الفكرة مشوقة للقارئ الذي يريد أن يعرف من الذي سيحصل بعد ذلك .

الحلم في (صهيل النهر) وسيلة من وسائل الأسطورة :

والروائية تؤكد أن ما عبرت عنه كان مجرد حلم ، لم ولن يتحقق على أرض الواقع قالت : " وصحوت صبيحة تلك الليلة وأنغام وطبول عرس فاطنة السمحة ، ومزامير فرحها .. لا تزال ترن في مسامعي . من لي بفرس مثل ود النمير يشلح عن بدني ملابس الجينز الخشنة ، ويحملني إلى قصره

ويتزوجني ؟ أين هو ود النمير الذي ينقذني من التسكع في الميادين العامة ، وغسل الصحون وكاسات الخمور الفارغة في المطاعم والبارات ، ومواخير المدن الأوربية الفاجرة ؟! " [50] .

وسبب اللجوء إلى الأسطورة هو التشابه بينهما ؛ لأن " الأسطورة كالحلم تعرض قصة تحدث في المكان والزمان ، قصة تعبّر باللغة الرمزية عن الأفكار الدينية والفلسفية وعن تجارب الروح التي تكمن فيها الدلالة الحقيقية للأسطورة ، فإذا أخفق المرء في فهم المعنى الحقيقي للأسطورة ، فإنه يجد نفسه وجها لوجه أمام هذا الخيار" [51]. وتعمل الروائية على الإيحاء بجو الأسطورة في روايتها من خلال الطقوس الرمزية ، ووظائفها المتعددة التي تعمل معا على رسم بنية الزمن التاريخي ، والفضاء والوسط ، ويودي تكرار الطقوس إلى دخولها عقول المؤدين في تماس منتظم مع خصائص رمزية ؛ مما يوثر في مفاهيمهم ومداركهم ، ويمثل التركيز على الأبعاد الرمزية عملا تجريديا ، ولا يعد إنكارا لأهمية وظائف الطقوس الاجتماعية ، أو للنظام العقائدي في كل حالة ، لكنه من ناحية أخرى يولي استخلاص الأفكار من هذه السمات ـ للتركيز على رمزية الطقوس ـ اهتماما خاصا بأدوارها المعرفية ، أي أدوارها في التصور ، والإشارة ، ومن ثم تشكيل مدارك المشاركين فيها ، وعاداتهم [52] .

وقد تنسب الطقوس الأسطورية إلى المشاعر الدينية المرتبطة بمجموعة من المناسبات يُنتج فيها رمز الرب للتأمل رسميا في البداية وهناك مسألة لا شعورية تتعلق بالمشاعر تتجلى في صياح ورقص ، ثم يتطور الهياج إلى تفاعل معتاد يوضح مشاعر الأفراد ، وليس لراحتهم ، ولما كانت الطقوس إفصاحا عن المشاعر ، فهي لا تنتج عاطفة بسيطة ، بل تنتج موقفا دائما معقدا هو نمط يحكم كل حيوات الأفراد [53]، فالطقس الذي يمارسه المعنيون بالأسطورة بشكل دائم ومتكرر حيال الأشياء الأولى والأخيرة ليس تعبيرا حرا عن العواطف ، بل هو تكرار منتظم لمواقف صحيحة [54] .

قالت الروائية توضح الطقوس الأسطورية : " كانت سناء بنت الحاجة أمونة التي تصغرني كثيرا في العمر من صديقات الطفولة ... وكانت تسبح معنا على ضفاف النهر أيام الدميرة** حين يصل النيل إلى مشارف القرية ويتهددها بالغرق ... عند تلال الرمل كنا نجلس صبيانا وبنات ونغني ونرقص في حلقة دائرية ، يقف ميرغني في وسط دارة الرقص يحمل مزمارا صنعه من عصا العنكوليب ، وهي ساق طويلة من قصب الذرة بعد أن نخرها واستبطن داخلها خارجا وجعل فيها فتحات تخرج منها الأنفاس رحيق الموسيقى ، ينفلت صوت القيثارة يتحدى الليل الساكن الا من أصوات الجنادب ، وهسيس الأفاعي المندسة بين أكوام الرمال تحت أقدامنا ينبثق غناء السارة بنت نور الشام العرجاء هامسا خافتا في حياء .. لكنه رويدا .. رويدا ينطلق بقوة يشرخ صمت الليل بجراح غائرة حين ترافقها سليمي

وعواطف بأصواتهن الحلوة " [55] .ونلاحظ في هذا النص رموزا أسطورية كثيرة حشدتها الروائية بشكل متتابع أمام المتلقي نجد أيام الدميرة أي الفيضان ، الرقص ، المزمار ، الجنادب ، الأفاعي ، الليل ، الغناء ، وهذه الرموز مشتركة بين الناس ؛ لذا نجد " الانتشار الواسع للأسطورة بين شعوب العالم القديم والحديث على حدّ سواء يدل دلالة واضحة على أن الإنسان نفسه مخلوق ذو نزعة أسطورية ، أي أنه ذو نزعة إلى خلق الأساطير وابتكارها ، والظاهر أن السبب يرجع إلى أنه كان منذ القدم ، وما يزال يجد نفسه أمام أسرار مبهمة لا يفهم كنهها فراح يلح في السؤال عنخا ، ويجهد نفسه في إيجاد الجواب عليها ، ترى ما سر هذا الكون الذي يعيش فيه ؟ وما سرّ كل هذه الظواهر الطبيعية التي تحيط به من كل جانب ؟ وما سرّ موته وفنائه في نهاية المطاف ؟ " [56].

التمساح رمز أسطوري :

ولعل نظرة متطورة إلى الأسطورة تبين أهمية استعمالها في الأدب فالبشر كانوا صنّاع أسطورة [57]. " فالأسطورة والعلم يوسعان معا مدى الوجود البشري ، وكما هما العلم والتقنية ، فإن الميثولوجيا ليس خروجا من هذا العالم ، بل تتعلق بقدرتنا على العيش فيه بكثافة " [58]. وتتحقق الكثافة من خلال الرموز ، وهنا نجد التمساح يظهر للوجود في رواية صهيل النهر رمزا للخوف ، عندما تروي لنا الروائية حلما حلمت به البطلة قائلة : " ترى في منامها .. تمساحا ضخما يرقد بجانبها ، تتحشرج أنفاسها عليها بذيله يحاول تهدئتها ، تبتعد عنه في هلع وتخرج صرخاتها حشرجة في كراهية مقيتة ، تبرق عيناه المرعبتان تماما .. مثلما برقتا بذلك اللمعان المخيف يوم وقفت أمامه تلميذة صغيرة فأثار في نفسها الرعب وجعلها تطلق صرخة هائلة زلزلت أرجاء مكتب المديرية حيث يربض التمساح في المدخل مصلوبا محنطا " [59] . وهذا الأمر يسوغه أن الأسطورة صممت " لمساعدتنا على التعامل مع المآزق البشرية المستعصية ، وإعانة الناس على تحديد موقعهم في العالم وتحديد وجهتهم فيه ، كلنا يريد أن يعرف من يعرف من أين أتينا " [60] ، والخوف هنا قد يكون من الرجل الذي يرمز له التمساح ، لكونه يرقد إلى جانبها في الفراش ، وقد يكون من العادات البالية التي تحكم المجتمع وهي عبارة عن أشياء محنطة وبالية رمزت لها بالتمساح المصلوب المحنط أمام مكتب المديرية .

وهنا يكتمل الحلم بقول الروائية واصفة التمساح : " يتحرك نحوها وهي في حلمها تزحف مبتعدة عنه وقد شلها الرعب ، تتوهج عيناه ويشوبهما احمرار مخيف .. تتحرك ببطء على فراش .. يزحف نحوها ، تحس بملمس جسده الخشن يجرح أجزاء جسدها التي تعرت من ملابسها الى الخلف وتديره نحو الناحية الاخرى وهي ترتجف وقد استسلمت تماما ينفتح الفكان وتظهر أسنانه وهو يتململ في

حركة دائرية ، ثم تجيء الضربة القاضية .. قاصمة حين يجثم فوقها .. تحس بأنفاسها تختنق .. ينزل من فوقها .. يرفعها في الهواء لمسافة زمنية قليلة يضربها بذيله في عنف .. يطبق عليها ثم يلتقمها بفكيه المرعبين . ظل التمساح هاجسا مرعبا في حياة سناء منذ الطفولة ، وهي في طريقها إلى المدرسة الابتدائية كل يوم ، تقف في رهبة طفلة دون العاشرة أمام جسد التمساح المحنط المصلوب فوق بوابة شرطة مركز المديرية ... أصبح الوقوف أمامه طقسا صباحيا تمارسه كل يوم " [61] . وتبقى الرهبة والخوف أمرا ملازما للبطلة كل حياتها ، فهي تخاف من كل شيء حتى صار الأمر طقسا وفي هذا إشارة خفية إلى الأسطورة التي تتكون من الطقوس .

نجاح الأسطورة في رواية (صهيل النهر) :

ونحكم على نجاح الأسطورة من خلال تأثيرها فينا " لأنها تزودنا بمعلومات عن حقائق ، وإذا لم تستطع تقديم رؤى جديدة حول المعنى الأعمق للحياة ، تكون قد أخفقت ، أما إذا نجحت ... بمعنى أنها تدفعنا إلى تغيير ذهنيتنا وقلوبنا ، وتعطينا أملا جديدا ، وتحفزنا على أن نعيش حياتنا بغنى أكثر ، فإنها تكون أسطورة حية ... فالأسطورة هي بالأساس دليل موجّه ، إنها تخبرنا ما يجب علينا فعله لتكون حياتنا أكثر غنى ، وإذا لم نطبقها على وضعنا وتعاملنا معها كحقيقة واقعية فستبقى غير مدركة وغريبة " [62] .

ونجد قول الروائية على لسان نسوة يساعدن النفساء على التخلص من آثار النفاس : " قالت أمها في لهجة آمرة : أنفضي ملابسك ، وقولي نفضت سبر*** أمي وأبوي في البحر ، أغرقت في الضحك ، تدفقت ضحكاتها في نشوة ، انتهرتها عمتها : قولي نفضت سبر أمي وأبوي في البحر .. ما تضحكي ، ناس .. بسم الله الرحمن الرحيم ... بيسحروك . كتمت ضحكاتها وظلت ابتسامتها تضئ وجهها ، قالت في صوت خفيض متهدج : نفضت سبر أمي وأبوي في البحر . انطلقت الزغاريد عالية ، والنسوة يتقاذفن بماء النهر ويتضاحكن " [63] . فهو طقس تمارسه النساء بكل احترام واظهار مظاهر القداسة . و" غرض الأسطورة هو أن تجعل الناس أكثر وعيا بالبعد الروحي الذي هو جزء طبيعي من الحياة ويحيط بهم من كل الجهات " [64] . بل إن الأساطير علمت الناس أنهم ينتمون إلى الأرض كانتماء الصخور والأنهار إليها ؛ كان لزاما عليهم احترام إيقاعها الطبيعي [65] . والأسطورة " حادثة تاريخية حصلت تاريخية حصلت مرة واحدة ، ولكن حدوثها سيستمر في كل وقت ، أي يتطلب حدوثها الدائم ، نقلها من حالة حدوثها الأولى ، بتجريدها من حدوثها الزمني الخاص " [66] . ومن خلال قراءتنا للرواية صهيل النهر نجد عندها فكرا أسطوريا قادرا على خلق أساطير جديدة ، أو تجديد الأساطير نفسها أو تعديلها بشكل

جدي وشمولي وإدراك معنى الحياة وسرّ الوجود مع تحريك الخيال ، والعاطفة والترميز [67]. قالت الروائية : " وعاهدت نفسي أن أذبح ديكا أسودا ، وأضع دمه في طست نحاس تحت سريري يوم أوبتي إلى بيتي " [68].

والأساطير هي " أول ما وافانا به الفكر البشري من شروحات للعالم والمجتمع في حين أن الطقوس هي أولى التمثيلات الرمزية ، والمحظورات أولى القوانين الأخلاقية ، وما عسى تكون الثقافة والحضارة إلا محاولة شرح للعالم والمجتمع ، ونشاطا دؤوبا من أجل خلق نظام رمزي يحيل إلى مدلول خفي ، وتنظيم علاقات البشر بعضهم ببعض " [69] . و " في كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم في الحياة ، وهي تعطي فكرة كاملة عن الروح المتأصل في هذه البلاد التي اتحدت في صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والسلام ، وما من أمة ارتفع شأنها أو هان ، إلا ولها أساطيرها وهي في كل ألوانها ... إنما تمثل جزءا ضخما من التراث القومي الذي يتلقاه الناس جيلا بعد جيل " [70] . وما حصل في الرواية أن الأسطورة بكل ما فيها من غرابة وغموض كانت موضحة لأفكار الروائية ، وكانت شارحة لحال البطلة مهما تنوعت واختلفت بين فصول الرواية .

نتائج البحث :

ـ جعلت الروائية بثينة خضر مكي الواقع أسطورة والأسطورة واقعا .

ـ بنت الروائية بثينة خضر مكي روايتها على الأسطورة التي كانت معادلا لفكرة الفروق بين المرأة والرجل ، ومهما كان ذكاؤها فهي تابع له.

ـ لجأت الروائية يلجأ إلى الأسطورة محاولة إعطاء تفسير مقنع لما عرضته من غرابة واقعها تجسد في حياتها فتأثرت به ، وأثرت فيه ؛ لامتلاكها عينا تختلف عن عين سواه .

ـ وحدد الروائية مظاهر لاستعمال الأسطورة في الرواية هي : الهروب من قوة المشكلات الحالية وضغطها . وتفجير الدلالات الأدبية ونقلها إلى ذهن المتلقي ، مجاراة ثقافة المتلقي ومعرفته بالأمور، الأسطورة أسلوب من أساليب التشويق .

ـ كانت الأسطورة موضحة لفكرة الرواية وشخوصها ، بل كانت مجموعة من الرموز والطقوس التي وضحت الرسالة التي أرادت الروائية ايصالها .

هوامش البحث :

* بثينة خضر مكي روائية سودانية مبدعة ، ولدت في مدينة شندي في السودان عام 1948م ، ونشأت فيها بدأت الكتابة في مراحل عمرها الأولى ، تخرجت في كلية الآداب في جامعة الملك عبد العزيز عام 1978م ، نالت الدبلوم العالي من جامعة الخرطوم عام 1988م ، نالت الدراسات العليا في الفلكلور عام 1998م ، انتخبت عضوا في البرلمان السوداني ، وهي العضو المؤسس لرابطة الأديبات السودانيات وهي صاحبة ست مجموعات قصصية وثلاث روايات أشهرها أغنية النار ، وصهيل النهر ، وحجول من الشوك .

ينظر الموقع الألكتروني :

tdoathcpow=www.youtube.com/watc jlhuf=V?malch/com.ubewww.yout
www.nc_doualiya.com

(1) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها /1، د. محمد عجينة ، دار الفارابي ، بيروت ـ لبنان ، العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع ، صفاقس ، تونس ، ط1، 1994م: 6.

(2)سومر ، أسطورة وملحمة ، د. فاضل عبد الواحد علي ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ـ العراق ،ط2، 2000م : 56.

(3)م. ن : 86.

(4)م .ن : المكان نفسه .

(5)م . ن : 87.

(6) م . ن : المكان نفسه .

(7)م . ن : المكان نفسه .

(8)الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي ، د. خالد عمر يسير ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، ع 16، 1392. 2014 : 133.

(9)موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها /1، د. محمد عجينة: 5.

(10)الأسطورة في المسرح المصري المعاصر/ 1933ـ 1970 ، د. أحمد شمس الدين الحجاجي ، دار المعارف ، بلا .ت : 295.

(11)الأسطورة والتراث ، سيّد القمني ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، القاهرة . مصر ، 1999م : 24.

(12)م . ن : 24.

(13)ينظر م. ن : 33.

(14)الملامح الأسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار " دراسة نقدية أسطورية " ، عبد الحليم منصوري ، بلا .مكان طبع ، بلا .ت : 16.

(15) ينظر قوة الأسطورة ، جوزيف كامبل ، تر: حسن صقر ، وميساء صقر ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، دمشق ـ سورية ، ط1، 1999 : 23 ، 36.

(16)م . ن : 125.

(17)لغز عشتار ، الإلوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، فراس السواح ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ، دمشق . سورية ، ط8، 2002م : 10.

(18)م. ن : 63.

(19)م . ن : 97.

(20)م . ن : 154.

(21)م . ن : 177.

(22)تشريح النقد ، نورثروب فراي ، ترجمة وتقديم : محيي الين صبحي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ـ الجمهورية العربية السورية ، 2005م : 52 ،(هامش المترجم) .

(23)م. ن: 198.

(24) المدوّنة الكبرى ـ الكتاب المقدس والأدب ، نورثروب فراي ، تر: سعيد الغانمي ، منشورات الجمل ، منشورات كلمة ، بيروت . لبنان ، 2009م : 107.

(25)صهيل النهر ، بثينة خضر مكي ، بيت الياسمين للنشر والتوزيع ، ط2، 2016م : 8.

(26)م . ن : 10.

(27)في النقد والأدب ـ الأدب والأسطورة ، هيرمان نورثروب فراي المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) ، ماكس أديريث ، تقديم وترجمة وتعليق د. عبد الحميد إبراهيم شيحة ، مكتبة النهضة المصرية ، مطابع الدجوي ، القاهرة . مصر ، مقدمة المترجم : 5.

(28)م . ن : 6.

(29)م . ن : المكان نفسه .

(30)م . ن : 7.

(31)صهيل النهر: 25.

(32) في النقد والأدب .الأدب والأسطورة ، المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) ، مقدمة المترجم : 7.

(33)م. ن : 16.

(34) صهيل النهر: 25.

(35)م . ن : 29.

(36) في النقد والأدب .الأدب والأسطورة ، المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) : 17.

(37)صهيل النهر: 21.

(38) في النقد والأدب .الأدب والأسطورة ، المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) : 37.

(39) صهيل النهر: 38.

(40)م . ن : 39.

(41) في النقد والأدب .الأدب والأسطورة ، المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) : 69.

(42)م . ن : 70.

(43)صقيل النهر: 27.

(44)اللغة المنسية ، دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير ، إريك فروم ، تر: محمود منقذ الهاشمي ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ،دمشق .سوريا ، 1991م : 30.

(45) صقيل النهر: 29.

(46)ينظر الفلسفة السياسية في العهد السقراطي ، ريمون غوش ، دار الساقي ، بيروت .لبنان ، ط1، 2008م : 11.

(47)ينظر م . ن : 106.

(48)صهيل النهر: 40.

(49)م . ن : 41.

(50)م . ن : 45.

(51) اللغة المنسية ، دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير: 231.

(52)صهيل النهر: 42 .

(53)العوالم الرمزية ، الفن والعلم واللغة والطقوس ، إسرائيل شيفلر ، تر: عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ـ مصر ، العدد (2569) ، ط1 ، 2016 : 161. 162.

(54)م . ن : 163.

** الدميرة : ازدياد حالة النهر وهياجه زمن الفيضان . صهيل النهر: 47 ، هامش المؤلفة .

ويبدو لي أن الدميرة تشكل لدى السودانيين شيئا تراثيا خاصا وقد اقترن اسمها مع عبارة (تمساح الدميرة) التي تطلقها النساء على الرجال كصفة حميدة فيها مبالغة كبيرة . ينظر: مقالة عنوانها : تمساح الدميرة ـ هانت الزلابية ، د. ناهد قرناص ، منشورة في صحيفة الحوش السوداني ، على الموقع الألكتروني :

action=show&18088hpp.clesarti/moc.hswoal.www?

(55)صهيل النهر: 48.

(56)سومر أسطورة وملحمة ، د. فاضل عبد الواحد علي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ـ العراق ،ط2، 2000م : 86.

(57)تاريخ الأسطورة ، كارين أرمسترونغ ، تر: د. وجيه قانصو ، مطابع الدار العربية للعلوم / ناشرون ، بيروت . لبنان ، ط1، 1429. 2008: 7.

(58)م . ن : 9.

(59)صهيل النهر: 52.

(60) تاريخ الأسطورة ، كارين أرمسترونغ ، تر: د. وجيه قانصو: 11.

(61)صهيل النهر: 53.

(62) تاريخ الأسطورة ، كارين أرمسترونغ ، تر: د. وجيه قانصو: 15.

(63)صهيل النهر: 83.

*** سبر جمع أسبار معتقدات شعبية في سيطرة قوى خارقة للطبيعة يحاول الذين يعتقدون فيها درء شرورها بالتمائم وبعض الطقوس الشعبية . صهيل النهر: 83، هامش الرواية .

(64) تاريخ الأسطورة ، كارين أرمسترونغ ، تر: د. وجيه قانصو: 20.

(65)ينظر: م . ن : 44.

(66)م . ن : 97.

(67)الأسطورة / توثيق حضاري ، تأليف قسم الدراسات والبحوث ، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية ، كيوان للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق . سورية ، ط1، 2009م : 24.

(68)صهيل النهر: 94.

(69)العنف والمقدس ، رينيه جيرار، تر: سميرة ريشا ، مراجعة د. جورج سليمان ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 2009: 13 مقدمة المترجم .

(70)أساطير من الشرق ، سليمان مظهر، دار الشروق ، ط1 ، 1420. 2000 : 5.

مصادر البحث ومراجعه :

أولا : الكتب والمراجع .

. أساطير من الشرق ، سليمان مظهر ، دار الشروق ، ط1 ، 1420. 2000 .

. الأسطورة / توثيق حضاري ، تأليف قسم الدراسات والبحوث ، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية ، كيوان للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق . سورية ، ط1، 2009م.

. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر/ 1933. 1970 ، د. أحمد شمس الذين الحجاجي ، دار المعارف ، بلا .ت .

. الأسطورة والتراث ، سيّد القمني ، المركز المصري لبحوث الحضارة ، القاهرة . مصر ، 1999م : 24.

. تاريخ الأسطورة ، كارين أرمسترونغ ، تر: د. وجيه قانصو ، مطابع الدار العربية للعلوم / ناشرون ، بيروت . لبنان ، ط1، 1429. 2008.

ـ تشريح النقد ، نورثروب فراي ، ترجمة وتقديم : محيي الين صبحي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ـ الجمهورية العربية السورية ، 2005م .

ـ سومر ، أسطورة وملحمة ، د. فاضل عبد الواحد علي ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ـ العراق ،ط2، 2000م .

ـ صهيل النهر ، بثينة خضر مكي ، بيت الياسمين للنشر والتوزيع ، ط2، 2016م .

ـ العنف والمقدس ، رينيه جيرار ، تر: سميرة ريشا ، مراجعة د. جورج سليمان ، المنظمة العربية للترجمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ـ لبنان ، ط1 ، 2009: 13 مقدمة المترجم .

ـ العوالم الرمزية ، الفن والعلم واللغة والطقوس ، إسرائيل شيفلر ، تر: عبد المقصود عبد الكريم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ـ مصر ، العدد (2569) ، ط1 ، 2016 .

ـ الفلسفة السياسة في العهد السقراطي ، ريمون غوش ، دار الساقي ، بيروت ـ لبنان ، ط1، 2008م .

ـ في النقد والأدب ـ الأدب والأسطورة ، هيرمان نورثروب فراي المقالة الثامنة من الكتاب (أدب الالتزام) ، ماكس أديريث ، تقديم وترجمة وتعليق د. عبد الحميد إبراهيم شيحة ، مكتبة النهضة المصرية ، مطابع الدجوي ، القاهرة ـ مصر .

ـ قوة الأسطورة ، جوزيف كامبل ، تر: حسن صقر ، وميساء صقر ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، دمشق ـ سورية ، ط1، 1999.

ـ اللغة المنسية ، دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير ، إريك فروم ، تر: محمود منقذ الهاشمي ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ،دمشق ـ سوريا ، 1991م .

ـ لغز عشتار ، الإلوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، فراس السواح ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة ، دمشق ـ سورية ، ط8، 2002م .

ـ المدوّنة الكبرى ــ الكتاب المقدس والأدب ، نورثروب فراي ، تر: سعيد الغانمي ، منشورات الجمل ، منشورات كلمة ، بيروت ـ لبنان 2009م .

ـ الملامح الأسطورية في رواية الحوات والقصر للطاهر وطار" دراسة نقدية أسطورية " ، عبد الحليم منصوري ، بلا .مكان طبع ، بلا .ت .

ـ موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها /1، د. محمد عجينة ، دار الفارابي ، بيروت ـ لبنان ، العربية محمد علي الحامي للنشر والتوزيع ، صفاقس ، تونس ، ط1، 1994م .

ثانيا : المجلات والصحف .

ـ الأسطورة ووظائفها في ديوان عبد الوهاب البياتي ، د. خالد عمر يسير ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، ع 16، 1392. 2014 .